تاريخ ما بين السطور

خُبيب بن عدي: حين يتهذّب الموت بالإيمان

سيّد الفداء ومعلم العطاء

رمضان مصطفى سليمان

مكّة ، في العام الثاني بعد الهجرة .
مدينةٌ تُمسك جراحها بيدٍ ، وتلوّح بالخنجر بالأخرى.

قريش ما تزال تنوح على قتلاها في بدر ، لكن نواحها ليس بكاءً خالصًا ، بل حقدٌ يتقطّر ، وثأرٌ يتخمّر في الصدور كما يتخمّر السمّ في الظلام . كلُّ دارٍ تحكي سيرة ميت ، وكلُّ زقاقٍ يضمر وعدًا بالانتقام . أمّا الذين أسلموا وكتموا إسلامهم ، فقد صاروا في مكّة غرباء في أوطانهم ، أسرى في بيوتهم ، تُغلّ أعناقهم بالسلاسل ، وتُقاس قلوبهم بموازين العذاب.

وفي أقصى دارٍ مكيّةٍ تنبئ جدرانها عن يسرٍ ورغد ، كان محبسٌ ضيّقٌ يحتضن فتىً وسيماً من أهل يثرب . لم يكن الحديد وحده ما قيّده ، بل مفارقة التاريخ : رجلٌ يُقتل لا لذنبٍ جناه ، بل لإيمانٍ اختاره.

كان خُبيب بن عدي يجلس إلى الجدار ، والقيود تعانق معصميه عناقًا فظًّا ، غير أنّ عينيه كانتا أوسع من الجدران ، وأبعد من القيود . في داخله كانت يثرب تُزهر ، وكان صوت النبي ﷺ يمرّ في صدره مرور الماء في الروح.

دخل أبو سفيان بن حرب الدار ، يتقدّمه ثقل الزعامة وكِبَر الهزيمة .

قال بصوتٍ يريد له أن يكون واثقًا :

يا أم سعد ، هلا أدخلتِني على أسيركم ؟

قادتْه المرأة الشابة ، ماوية بنت عمرو ، بخطى متردّدة. وحين وقفت عند باب المحبس ، التفتت إليه بنصف ابتسامة ساخرة :

أوَ ما تخشاه على نفسك يا أبا سفيان ؟

ابتسم ابتسامةً باردة ، وقال وهو يمضي :

أخشى رجلًا مقيّدًا بالحديد إلى جدار محبسه ؟

دخل.

والتقت عيناه بعيني خُبيب . لم تكن تلك عينَي أسيرٍ ينتظر السكين ، بل عينَي شاهدٍ على التاريخ.

قال خُبيب ، بصوتٍ هادئٍ كأنما يخرج من عمق اليقين :

لبئس ما تفعلون بأسراكم ، معشر قريش . ماذا فعلتم بأخي زيد بن الدثنة ؟

قال أبو سفيان ، وكأنه يلقي حجرًا في بئر:

قتله منذ ثلاثة أيام صفوان بن أمية ، في أبيه أمية بن خلف.

أطرق خُبيب رأسه ، وتمتم بالاسترجاع ، ثم رفعه فجأة ، وفي صوته استنكارٌ يجلجل :

أتقتلون أسراكم ، ونحن قبلنا فيمن أسرنا منكم في بدر الفداء !

لوّح أبو سفيان بيده ، نافضًا الحديث :

دعك من هذا يا خُبيب، ما جئتك لمثله.

ففيم جئتني إذن ؟

ثم أردف خُبيب ، وقد لمح في عيني الرجل قلقًا دفينًا :

كأنك تريد أن تعرف ما فعلنا بولدك حنظلة بعد أن مات ؟

تصلّب وجه أبي سفيان :

ألقيتم به في القليب كما فعلتم بسراة قريش؟

كلا.

قتلتموه بعد أن وقع أسيرًا في أيديكم ؟ من أسره ؟

كان في أسر مصعب بن عمير، ومات في جرحه ونحن في الطريق إلى يثرب.

قال أبو سفيان ، وفي صوته مرارة ممزوجة بالتحقير :

كان صديقًا لك قبل أن يُغرَّر بك محمد ، فتسلم وتغدو من خدمه.

ارتفع صوت خُبيب ، لا غضبًا بل وضوحًا :

ليس لرسول الله خدم ، يا أبا سفيان. كلنا نسعد بصحبته ، ونلتمس بها مغفرةً من الله والجنة.

سكتت الدار لحظة .

قال أبو سفيان ، وقد غلبه الوجع :

وتركتم ولدي حنظلة للسباع ؟

بل أمرني رسول الله ﷺ أن أقوم بدفنه ، لعلمه بما كان بيني وبينه من صحبة قبل أن أسلم.

اهتزّ صوت الرجل :

فأنت تعرف مكان قبره ؟

أجل.

أين هو؟

ابتسم خُبيب ابتسامةً خفيفة ، و قال :

وما يدفعني لأن أدلّك عليه ، وأنت أول من حرّض الناس على شرائي من أشرار بني خُذيمة ؟

بل حرّضهم على شرائك أكثر من رجلٍ ممّن وترتموهم في بدر : صفوان ، وعكرمة ، وحُجير... أين دفنتَ ولدي يا خُبيب ؟

سكت خُبيب طويلًا . وفي داخله ، دار حوارٌ آخر ، أعمق من الكلمات:

ها هو عدوّ الأمس ، مكسور الأبوة ، يسألني عن قبر ولده . ما أضيق المسافة بين القاتل والمكلوم ! لو شاء الله لكان هذا الرجل أخي في الدين ، لكنه اختار طريقًا آخر. أما أنا ، فاختُرت لطريقٍ لا رجعة فيه.

قال خُبيب أخيرًا :

إن أطلقتني ، واعدتك عند مشارف مكة أن آخذك إلى قبر ولدك حنظلة.

هزّ أبو سفيان رأسه ، كمن يعرف استحالة ما يُعرض عليه :

واللات ، لا أملك هذا . فقد جعل حُجير بن أبي وهب حرسًا حول بيته ، فلا أستطيع أن أُسريك من محبسك.

رفع خُبيب رأسه ، وفي صوته صفاءُ النهاية :

فأنتم قاتلي ؟

نعم.

متى ؟

لم يجب أبو سفيان . خرج ، تاركًا خلفه صمتًا أثقل من الحديد.

+

تلك الليلة، لم ينم خُبيب .

كان يستعرض عمره القصير ، لا ندم فيه ولا تردّد . تذكّر بدرًا ، وتذكّر يثرب ، وتذكّر وجه النبي ﷺ وهو يبتسم . أحسّ أنّ الموت ليس فناءً ، بل عبور. وأنّ الجسد إن سقط ، فالمعنى ينهض.

وفي الصباح ، أُخرج إلى التنعيم . تجمّع الناس ، بعضهم شامت ، وبعضهم متفرّج ، وقليلٌ تهتزّ قلوبهم ولا يجرؤون على البوح . طلب خُبيب أن يُصلّي ركعتين . نظروا إليه ساخرين ، فصلّى. أطال ، لا جزعًا بل توديعًا ، ثم قال :

لولا أن تظنوا أني أطلت جزعًا من الموت، لاستكثرت.

وقف أمام الخشبة ، والسماء فوقه زرقاء كأنها تعرفه .

قال كلمته التي خُلّدت :

اللهم أحصهم عددًا ، واقتلهم بددًا ، ولا تُبقِ منهم أحدًا .

ثم أنشد ، والموت ينصت :

ولستُ أبالي حين أُقتل مسلمًا   على أي جنبٍ كان في الله مصرعي .

وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شِلوٍ ممزّعِ .

وسقط الجسد . لكن خُبيب لم يسقط .

صار درسًا ، وصار اسمًا ، وصار أستاذًا في فنّ الفداء ، يُعلّم التاريخ كيف يُهزم السيفُ أمام العقيدة ، وكيف ينتصر الأسيرُ على جلّاده ، وكيف يولد الخلود من رحم الصليب.

على خشبة التنعيم

حين يعلو اليقين فوق صليل السلاسل

كانوا ينتظرون.

انتظارًا لا يشبه الصبر ، بل يشبه تربّص الذئاب عند مشارف الليل ؛ عيونٌ مشدودة ، وأنفاسٌ محبوسة ، وقلوبٌ تغلي بسخيمةٍ سوداء لا يطفئها دم. كانوا ينتظرون انقضاء الشهر الحرام ، لا توقيرًا له ، بل تحايلًا على حرمةٍ ضاقت بها صدورهم ، وينتظرون عودة **حُجير بن أبي وهب** من الطائف ، فهو- كما زعموا- الذي يكلب على قتلك بأبيه ، كما يكلب صفوان وعكرمة ، يتناوبون الحقد كما يتناوب السقاة على الكأس المُرّة.

وأنا - وخبيب يحدث نفسه - ما أنا وهؤلاء ؟ أيّ جرمٍ علّقوه في عنقي ؟ أيُّ دمٍ سفكته بسيفي ؟

والله ما قتلتُ أميّة بن خلف ، ولا دنوتُ من عمرو بن هشام ، ولا مسّ سيفي أبا وهب . ولو كنتُ قتلتهم يوم بدرٍ حيث تُقاس الرجولة بالثبات ، ما أنكرتُ ولا جادلتُ ، فالقتل في الحرب شهادة موقف لا جريمة خفاء . فما الذي كلبهم عليّ إذًا ؟ إنها السخيمة... السخيمة التي عشّشت في قلوب قريش على الإسلام وأهله ، نارٌ تأكل ما حولها ، فإن لم تجد وقودًا التهمت أصحابها.

اقترب **أبو سفيان** يومًا ، والدهاء يسبق خطاه ، والصوت يلبس ثوب اللين وهو يخفي حدّ الخديعة . قال :

اذكر لي أين دفنتَ ولدي حنظلة يا خبيب ، عسى أن تشفع لك عند القوم ، فيأخذوا بشفاعتي .

نظر إليه خبيب نظرة من يعرف الرجال ، لا تُغريه الوعود ولا تُرعبه السيوف ، وقال في سكونٍ أثقل من الجبال:

دفنته عند عسفان ، لن تخطئ قبره هناك .

تمتم أبو سفيان :

لن أنسى لك هذه اليد يا خبيب .

فابتسم خبيب ابتسامة من خبر الوعود المجوفة ، و قال :

ما أكثر ما تعد وتُخلف يا أبا سفيان ، وما أحسبك - يا سيد مكة - إلا حجرًا يتلاعب به صفوان وعكرمة.

ثم عاد حجير بن أبي وهب من الطائف ، وكان أول همه أن يطمئن إلى أن أسيره لم يهرب من محبسه.

كيف يهرب ؟ وهو - في زعمهم - قاتل أبيه في بدر! كذبةٌ ألبسوها ثوب اليقين ، حتى صدّقوها ، فصار الوهم عندهم حقيقة ، والحقد دليلًا.

أُخرج خبيب بن عدي مقيّدًا بالسلاسل ، جُمعت يداه إلى عنقه ، ودُفع أمامهم دفعًا ، لا احترام لآلٍ ولا ذمّة ولا جوار . مضوا به إلى **التنعيم** ؛ المكان الذي اعتادوا أن يُريقوا فيه دم الأسارى ، كأنما صار موضعًا مقدسًا عندهم ، لا للصلاة، بل للثأر.

قال عكرمة ، والحقد يتقاطر من كلماته :

انصبوا أكبر خشبة ، صلبنا عليها عدوًا لنا .

فصاح خبيب ، وصوته يخترق جدار الضجيج :

يا أبا سفيان ، وعدك الذي وعدتني !

التفت عكرمة في غضب :

وعده ؟ أوعدت هذا الصابئ بشيء يا أبا سفيان ؟

قال أبو سفيان في استخزاءٍ متصنّع :

أن أسقيه قبل أن تقتلوه.

قال خبيب بهدوء من ارتوى قبل العطش :

ما أريد ماءً يا أبا سفيان .

فماذا تريد إذن ؟

أن تمهلوني قبل الصلب حتى أصلي لربي ركعتين.

فتصايح مشركو مكة ، وكأن الصلاة أشد عليهم من السيف :

لا تدعوه يصلي بصلاة المسلمين ! اقتلوه مكانه ! ويحه، يقتل آباءنا وإخوتنا ويريد أن نجيبه إلى ما يريد !

لا واللات ، لا ترفعوا عنه قيوده ، لئلا يخدعنا ويفرّ هاربًا!

لكن أبا سفيان صاح فيهم :

ويحكم ! وماذا يملك رجل لا سلاح معه ، وأنتم حوله بسيوفكم ؟ دعوه يصلي ثم اقتلوه بعدها . اتصلِّ يا ابن عدي في قيودك .

قال خبيب :

لا ضير، فهي لا تمنعني من الركوع والسجود.

فصلّى ركعتين تامتين ، خشعت فيهما جوارحه ، وسكنت روحه ، كأنما كان يعبر بهما من عالمٍ إلى عالم . ثم التفت إليهم وقال :

أما والله ، لولا أن تظنوا أني إنما أطلت جزعًا من القتل ، لاستكثرت من الصلاة.

ورُفع على الخشبة.

خرجت مكة كلها إلى التنعيم ، تشهد مصرع أول أسير من أصحاب عدوهم محمد ﷺ يُقتل صبرًا. غلٌّ أبدي في القلوب ، وعيونٌ حاقدة تتلمظ شوقًا لرؤية الدم، تظنّه يشفي ، وما هو إلا يزيدها ظمأ.

كانوا ينتظرون أن يغسل دمه رمال صحرائهم الباغية ، وأن يعطّرها - دون أن يدروا - بريح الجنة.

أما الشهيد ، فكان عنهم في معزل.

لم يكن يرى السيوف ، ولا يسمع صيحات الثأر ، كأنما سُحبت منه الحواس ، وبقي القلب وحده . ارتسمت أمام عينيه **يثرب** : بساتينها ، سِككها ، ملاعبها ، ما بين سلع وعسير . هناك ، حيث الضحكة صادقة ، والقلوب أقلّ قسوة.

تذكّر يوم رأى **عبد الله بن سلول** يخرج من مسجد رسول الله ﷺ باكيًا ، وكان من خلصائه ، ورفيق ملاعب طفولته.

قال له يومها :

ما لك تبكي يا عبد الله ؟ وأنت الذي لم يكن ينتهي لك ضحك ومرح وفكاهة ؟ أفسدك هذا الدين الذي تركت به ملة الأجداد ؟ ما يحزنك ؟

قال عبد الله، والدمع يفضح ما يكتمه الصدر :

يحزنني أمر أبي يا خبيب... أتعلم مدى حبي له ؟

وما يحزنك من أمر أبيك ؟ أسلم كما أسلمت ، وتابع محمدًا.

ما أسلم أبي يا خبيب . كنت أشك في أمره منذ زعم أنه دخل في الإسلام ، ثم أيقنت أنه ينقل كل ما يحدثنا به رسول الله ﷺ إلى يهود بني قريظة.

قال خبيب، وقد كان حسن الظن سابقًا :

وما في هذا ؟ يهود بني قريظة أهل كتاب ، ولعله يسألهم تفسير بعض ما يقول لكم محمد إنه ينزل على قلبه من السماء .

فثار عبد الله غضبًا :

يا خبيب ، وجهي من وجهك حرام إن عدت إلى مثل قولك هذا !

ضحك خبيب يومها ليطفئ النار :

عجبًا لك يا عبد الله! تباعد صديق الطفولة والشباب ؟ إنما كنت أمازحك.

ثم سأله عبد الله :

ما تقول في اليهود يا خبيب ؟

فقال ، وقد انكشف له المستور :

أهل زيف وبهتان. يفتحون أبواب حصونهم لشباب الأوس والخزرج ، ويسقونهم دنان الخمر، ويهيئون لهم من نسائهم ما لا يرضاه كريم لأهل بيته. فإذا سألتهم عن دينهم وتوراتهم ، قالوا كما قال لي كعب بن أسد سيد قريظة : "اختارنا الله دون سوانا لنسود الأرض". كذبوا والله، ما يختار الله أسوأ عباده ليسودوا الأرض.

قال عبد الله بحزنٍ يقطر مرارة :

فهؤلاء هم الذين يتخذهم أبي أصفياء... يجالسهم، ويسمع ما يقولون في رسول الله ، فلا يدفع عنه ، فإذا جاء إلى المسجد جادل المسلمين بما لقنه أصفياؤه اليهود.

وما يقول فيه محمد ؟

أو ما قلتَ لرسول الله يا خبيب؟

تهرّب خبيب يومها من الجواب ، وقال وهو يشيح بوجهه :

وما يقول صاحبك في أبيك ، وهو يعلم بأمره؟

عاد خبيب من الذكرى إلى الخشبة.

رفع بصره إلى السماء ، وهمس قلبه قبل لسانه:

اللهم ، إني قد بلّغت ، فاشهد.

وسقط الجسد ، وبقيت الروح تحلّق.

أما التنعيم ، فظل شاهدًا:

أن خشبةً قد ترتفع ، لكن اليقين... دائمًا أعلى.

بين ظِلِّ النفاق ونور اليقين
حوار القلوب على عتبات التاريخ

في مدينةٍ كانت تتشكّل من جديد ، وتُعاد صياغة أرواحها كما تُعاد كتابة المصائر ، كان الزمن يمشي على أطرافه ، خائفًا من أن يوقظ ما نام في الصدور من أحقادٍ قديمة ، أو أن يزعج يقظة الإيمان الوليد في قلوبٍ ما زالت تتلمّس طريقها إلى النور.

المدينة يومئذٍ لم تكن مجرد بيوتٍ من طين ، ولا أزقّةٍ تتعانق فيها الظلال ، بل كانت مسرحًا عظيمًا لصراعٍ خفيٍّ بين ما كان وما سيكون ، بين الجاهلية التي تأبى الرحيل ، والإسلام الذي جاء ليقيم ميزان العدل في النفوس قبل أن يقيمه في الأرض.

كان عبد الله يسير في طرقات المدينة ، وخطاه مثقلةٌ بأسئلةٍ لا يجرؤ على الجهر بها. في داخله ضجيجٌ لا يهدأ، صراعٌ بين الابن والاب ، بين الإيمان والدم ، بين نور الحقيقة وظلّ النفاق.

هو عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ، ذلك الاسم الذي كان وحده كافيًا ليوقظ في القلوب ارتجافًا ، وفي الألسنة همسًا ، وفي العيون اتهامًا صامتًا.

قال عبد الله، وصوته مزيجٌ من صلابة المؤمن ورقّة الابن :

عندما حدّثه بعض المسلمين في هذا ، وشكوا إليه ما يجدون منه ، واتهموه بالنفاق ، وطلبوا إخراجه من المسجد ، أبى رسول الله ﷺ أن يردّ أحدًا عن الإسلام ، وأمرهم أن يحسنوا صحبته ما دام فيهم . والله يا خبيب ، إني لأعلم أن رسول الله لم يقل هذا إلا رعايةً لشأني ، فهو يعلم قدر حبّي لأبي على نفاقه.

كان خبيب يصغي ، وعيناه تلمعان بسخريةٍ خفيفة ، كمن يرى المشهد من علٍ ، لا من عمق التجربة . لم يكن خبيب جاهلاً بما في المدينة من همسٍ وغمز ، ولا بما في عبد الله من نارٍ مكبوتة.

قال خبيب ، وهو يهز رأسه ببطء :

لا أحد ينكر على محمدٍ ﷺ برَّه وإحسانه ورفقه بأصحابه ، فقد كان رحمةً تمشي على قدمين.

لكن عبد الله لم يكن يريد شهادةً عامة ، بل كان يبحث عن نافذةٍ صغيرة يدخل منها إلى قلب صديقه ، كما دخل الإيمان إلى قلبه هو ذات فجرٍ صادق.

اقترب عبد الله ، وخفّض صوته كأنما يخشى أن تسمعه الجدران :

يا خبيب ، ألم يأنِ لك أن تكون من بين هؤلاء الأصحاب ؟

ثم سكت لحظة ، كأن الكلمات تخونه ، ثم أردف بنبرةٍ معاتبةٍ حانية :

ألا يدفعك إلى هذا ما فعل رسول الله ﷺ للأوس والخزرج ؟ وحّد بين قلوبهم بعد أن كانت سيوفهم تتلاقى ، فصاروا إخوانًا في الله . لقد كنتَ تتمنى ذلك قبل أن يكرمنا الله بهجرة رسوله.

في تلك اللحظة ، غاص عبد الله في داخله. رأى أباه ، رأى ملامحه المتصلّبة ، رأى كيف كان الإيمان يمرّ من جواره فلا يدخل ، وكيف كان النفاق يلبس ثوب الحكمة ، ويتزيّا بزيّ العقل .

قال في نفسه :

يا رب، كيف جمعتَ في قلبي حبّك وحبّ أبي ، وهما نقيضان ؟ وكيف أمرتني بالبرّ ، وأمرتني بالبراءة من الباطل ؟

كان يعلم أن رسول الله ﷺ لم يحمِ أباه إلا رحمةً به هو ، وأن هذا الموقف النبوي لم يكن سياسةً ولا مداراة ، بل تربيةً عميقةً للنفس الإنسانية ، كي تتعلّم أن الإيمان لا يقوم على الإكراه ، ولا يثبت بالسيف ، بل يستقرّ بالعدل والصبر.

ضحك خبيب ضحكةً قصيرة ، فيها شيءٌ من المرارة ، وقال :

ويحك يا عبد الله ! إنك لتلحّ عليّ في هذا الأمر بمثل ما يلحّ به عليّ خالد بن عمرو بن الجموح!

كان الضحك قناعًا ، يخفي وراءه تردّدًا قديماً ، وخوفًا موروثًا ، ورغبةً مؤجّلة . خبيب لم يكن معاندًا بقدر ما كان خائفًا من التحوّل ؛ فالتحوّل موتٌ لذاتٍ قديمة ، وولادةٌ لذاتٍ جديدة ، وما بين الموت والولادة وجعٌ لا يُحتمل.

قال عبد الله ، وقد استجمع شجاعته :

أفلا تستجيب لما يدعوك إليه أحبّ الناس إليك ؟ أنا وخالد ؟

سكت خبيب . سكت طويلًا.

وكان الصمت هنا أبلغ من ألف خطبة

في داخله دار حوارٌ لا يسمعه أحد :

أأترك ما عرفت لما لم أجرّب ؟ أأقفز من ضفّةٍ إلى أخرى وأنا لا أحسن السباحة ؟

لكنه تذكّر ، دون أن يشعر ، تلك الأيام التي كان يحلم فيها بمدنيةٍ بلا ثأر ، وبأخوةٍ بلا دم . تذكّر كيف كانت الأوس والخزرج نارًا تحت الرماد ، حتى جاء محمد ﷺ فأطفأها بعدلٍ لا يعرف الانحياز.

قال خبيب أخيرًا ، بنبرةٍ أقل سخرية ، وأكثر صدقًا :

إن في قولك لوقعًا ، وفي فعلكم لعبرة ، ولكن القلوب يا عبد الله لا تُساق كما تُساق الإبل.

ابتسم عبد الله ابتسامةً حزينة ، وقال :

صدقت، ولكنها تُهدى... كما هُديتُ أنا.

في تلك اللحظة ، مرّ طيف التاريخ بينهما. تاريخٌ لم يكن مكتوبًا بعد ، لكنه كان يتشكّل في مثل هذه الحوارات ، في هذا الصراع الصامت بين الإيمان والتردّد ، بين الحبّ والخوف ، بين الإنسان ونفسه.

ومضى عبد الله ، وهو يعلم أن الهداية ليست بيده ، لكنه كان واثقًا أن الكلمة الصادقة ، إذا خرجت من قلبٍ صادق ، لا تموت.

أما خبيب ، فبقي واقفًا ، يحدّق في الأفق ، حيث كانت المدينة تنام على وعدٍ كبير... وعدٍ بأن الغد، مهما تأخّر، لا بد أن يأتي.

حين بكى القلب قبل العين

خبيب الأوسي بين ظلال الجاهلية ونور النبوة

لم تكن يثرب يومئذٍ مدينةً عادية ، بل كانت قلبًا منقسمًا بين ضلوع متخاصمة ، وذاكرةً مثقلةً بدماء بعاث ، وسوقًا تعجّ بالأصوات ، تختلط فيها ضحكات الفتيان بصليل السيوف ، وحِكَم الشيوخ بمكايد اليهود . هناك ، في تلك الأزقّة التي تعرف الأقدام أكثر مما تعرف الوجوه ، نشأ الفتى **خبيب بن أوس** ؛ فتىً نحيل القوام ، عريض الحلم ، تتنازعه نوازع القوة ونزغات الفكر ، ويشدّه إلى السماء شوقٌ لا يعرف له اسمًا.

كان خبيب من أشدّ شبان الأوس إعجابًا بسيدهم وفارسهم ، **سعد بن معاذ** ، ذلك الرجل الذي إذا مشى حسبته جبلًا ، وإذا تكلّم ظننت الحكمة قد نطقت. كان سعد عند خبيب ميزان الرجولة ، وصورة العدل ، وهيبة القيادة. غير أنّ الفتى ، على الرغم من ذلك الإعجاب الصامت ، كان يألف شبان الخزرج ، أولئك الذين عُرفوا بالمرح والمسابقة والمصارعة والمباهاة بالقوة البدنية ، يركضون بالخيل في أطراف يثرب ، ويضحكون في سوق بني قينقاع ، ويسخرون من فتيان اليهود سخريةً تمتزج فيها الطيشة بالمرارة.

وكان خبيب، مثل صاحبيه **عبد الله بن سلول** و**خالد بن عمرو بن لجموح**، يحلم حلمًا أكبر من سباق خيل ، وأوسع من مصارعة أكتاف ؛ كان يحلم بيومٍ تجتمع فيه الأوس والخزرج ، فلا تكون الحرب إرثًا ، ولا الثأر عادة ، ولا اليهود سادة اللعب على أوتار الفتنة . كان يرى بعين الفتى ، ويفكّر بعقل الشيخ ، ويتألّم بقلب المدينة كلّها.

وكان عبد الله يقول ، وهو يرمي بحصاةٍ في تراب السوق :

إلى متى نظلّ لعبًا بين أيديهم ؟ يُشعلون نارًا بيننا ، ثم يقفون يتدفؤون بها.

ويردّ خالد ، وهو يشدّ وثاق فرسه :

لو اجتمعنا يومًا، لانكسر هذا القيد ، ولكن القلوب متفرقة ، والسيوف متحفّزة.

وكان خبيب يصمت ، فالصمت عنده لم يكن فراغًا ، بل امتلاءً بسؤالٍ لا يجد له جوابًا.

ثم جاء اليوم الذي انشقّ فيه التاريخ عن نور . جاء **محمد بن عبد الله** مهاجرًا ، لا يحمل سيفًا ولا كنزًا ، بل يحمل كلمة . كلمةٌ إذا نطقت ، جمعت ، وإذا سكنت ، أحيَت . وما إن اجتمع الأوس والخزرج تحت لواء التوحيد ، حتى شعر أولئك الثلاثة أن حلمهم القديم قد وُلد من جديد ، لا على ألسنة الشعراء ، بل في واقع الناس.

أسلم عبد الله ، وأسلم خالد ، وبقي خبيب واقفًا على عتبة السؤال . لم يكن معاندًا ، ولا جاحدًا ، ولكن في داخله صراعًا مريرًا بين ما ألفه ، وما يجهله . كان

يرى أصحابه وقد تغيّروا: وجوههم أكثر طمأنينة ، وحديثهم أقل صخبًا ، وعيونهم كأنها ترى ما لا يُرى.

وفي ليلةٍ هادئة ، جلس خبيب وحده ، والمدينة نائمة إلا من أنفاسها . حدّث نفسه حديثًا طويلًا ، كأنما يُحاكم قلبه :

ما لي لا أقترب من هذا الدين ؟ ما لي أباعده وما رأيته يدعو إلى شرّ قط ؟ أتراني أخشى أن أخسر ما لا أملك ؟ أم أخاف أن أربح ما لا أستحق ؟

ثم قال في سرّه:

أيُّ ضيرٍ في أن أدخل المسجد في صحبة عبد الله وخالد ؟ فإن مسّ الإسلام قلبي كما مسّ قلبيهما ، تابعت محمدًا ، هذا القرشيّ القسيم ، الوسيم في خلقه قبل خلقه ، الذي يحبّه من تابعه كما لم يحبّ أحدٌ أحدًا.

وفي الصباح ، سار معهم. كانت خطواته إلى المسجد ثقيلةً كأنها تحمل تاريخ الأوس كلّه ، وكان قلبه يخفق خفقًا لم يعرفه من قبل. دخل ، وجلس ، وسكت. وبدأ رسول الله ﷺ يتلو القرآن.

كان الصوت هادئًا ، لكنّه نافذ. لم يكن صراخًا ، بل نداء . لم يكن شعرًا ، لكنّه أخذ بالألباب . آياتٌ تنزل كالغيث ، تغسل ما تراكم من غبار الجاهلية ، وتوقظ في النفس معنى الإنسان . شعر خبيب كأن الكلمات تخاطبه وحده، تفضح ما في صدره ، وتربّت على جراحه.

هذا ليس كلام بشر ، قالها في داخله ، قبل أن يقولها بلسانه . هذا صوت الحق حين يتكلّم ، ونور العقل حين يهتدي ، وطمأنينة القلب حين يعود إلى أصله.

ما إن انتهى الرسول من التلاوة، حتى قام خبيب من مكانه واجمًا ، والدموع معلّقة في عينيه ، لا تسيل حياءً ، ولا تجفّ خشيةً . أمسك عبد الله بذراعه وسأله :

إلى أين يا خبيب ؟

فأجابه، وصوته يرتجف لا ضعفًا بل يقينًا :

إلى الماء... أغتسل ، ثم أمثل بين يدي رسول الله ، فأشهد شهادة الحق.

ومنذ تلك الساعة ، لم يفارق مجلس الرسول قط. كأنما وجد ضالّته ، أو عاد إلى بيته بعد طول غياب. صار المسجد وطنه ، والقرآن أنيسه ، والنبيّ معلمه وأباه الروحي. ثلاثةٌ من شبان يثرب ، يتلازمون في المسجد وخارجه ، حيثما كان رسول الله كانوا خلفه وبين يديه ، يسارعون لتلبية أمره ، ويتبادرون وضوءه ، ويتنافسون في خدمته :**عبد الله، وخالد، وخبيب.**

وكان خبيب ، في خلائه ، يغوص في أعماقه ، متأمّلًا تحوّله العجيب. يقول لنفسه:

بالأمس كنت أبحث عن القوة في العضلات ، واليوم وجدتها في القيم . كنت أظنّ الرجولة صرخة ، فإذا بها صبر . كنت أرى الحياة سباقًا ، فإذا بها رسالة.

هكذا تشكّلت شخصية خبيب من جديد ، لا بوحي السيف ، بل بنور الكلمة. صار يرى التاريخ لا كحروبٍ متعاقبة ، بل كمسيرة هداية. وصار يعلم أن اجتماع الأوس والخزرج لم يكن صدفة ، بل قدرًا كُتب حين نطق النبي" **:يا أيها الناس، أفشوا السلام".**

وفي قلب خبيب، وُلد سلامٌ لم يعرفه من قبل. سلامٌ جعل دموعه صلاة، وصمته حكمة، وخطواته في دروب المدينة شهادةً على أن الإنسان، حين يجد الحق، لا يعود كما كان أبدًا.

حوار الروح مع قدرها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۝ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾

صدق الله العظيم.

*

كانت **أحد** جرحًا مفتوحًا في ذاكرة المدينة ، لا يندمل إلا ليذكّر، ولا يذكر إلا ليُعلّم. فيها اختلط الدم بالتراب ، والعَرق بالدعا ء، والرجاء بالابتلاء. يومٌ خرج فيه المسلمون بقلوبٍ معلّقة بالنصر ، فعاد بعضهم وقلوبهم معلّقة بالحِكمة. وفي زوايا ذلك اليوم ، كان **خُبيب بن عديّ** يجرّ أذيال الصبر، وقد نجا جسده من سيوف القوم ، لكن روحه بقيت هناك ، معلّقة بين السماء والأرض ، تتساءل : لِمَ لم أُختَر ؟ أكان فيّ نقص ؟ أم أن للقدر موعدًا آخر ؟

كان خُبيب من فرسان الأنصار المبرزين ، صلب العود ، ليّن القلب ، إذا ذكر الله خفقت روحه كما تخفق أجنحة الطير إذا دنا الفجر . لم تُكتب له الشهادة يوم أُحد كما كُتبت لخالد بن عمرو بن الجموح ، ذاك الذي خرج أعرجَ الجسد مستقيمَ الروح ، فعاد شهيدًا تمشي قدماه في الجنة.

نظر خُبيب إلى جسده السليم وقال في سرّه : أهذا فضل أم تأخير ؟ أهذه نجاة أم امتحان ؟

كان البلاء يُبليه خير البلاء ؛ بلاء الانتظار ، وبلاء التمنّي ، وبلاء القلب الذي ذاق طعم الشهادة ولم يرتوِ.

في الليالي التالية ، كان إذا هدأت المدينة ، ونامت العيون ، جلس خُبيب وحده ، يناجي نفسه :

يا نفس ، أتصبرين ؟ أم تضجرين ؟ أترغبين في الموت حبًّا ، أم تهربين منه خوفًا ؟

فتجيبه نفسه بصوتٍ يشبه الأنين :

بل أحبّه إذا كان في سبيل الله ، وأخشاه إذا كان فرارًا من واجب.

*

وذات صباحٍ، والمدينة تفيق على وقع الأقدام وهدير الدعاء ، جاء **عبد الله** ، صاحبه ورفيق دربه ، وملامح الدهشة مرسومة على وجهه.

قال: يا خُبيب ، أما سمعت الخبر ؟

رفع خُبيب رأسه ، وفي عينيه بريق حذر : وما الخبر؟

قال: وفدٌ جاء من الهُون بن مدركة ، قصدوا رسول الله ﷺ ، وأعلنوا إسلامهم.

ارتعشت شفتا خُبيب ، وكأن اسم القبيلة أيقظ ذاكرة قديمة. قال بدهشة ممزوجة بريبة :

الهون بن خزيمة بن مدركة ؟!

قال عبد الله مستغربًا :

وما يدهشك من أمرهم يا خُبيب ؟ قومٌ هداهم الله إلى الإسلام.

تنفّس خُبيب بعمق ، وقال وكأنه يحاور التاريخ لا صاحبه :

قبائل عَضَل والقارَة... أتعرفهما ؟ مساكنهم شرق مكة، على مسافة فراسخ ، وأكثرهم من حلفاء بني عبد شمس... ما عُرف عنهم إلا الغدر ، ولا اشتهروا إلا بالخديعة.

سكت عبد الله لحظة ، ثم قال:

الله يهدي من يشاء يا خُبيب. ومهما كان ماضيهم ، فالإسلام يجبّ ما قبله.

ردّ خُبيب، وصوته بين الشك واليقين :

نعم... ولكن القلب لا ينسى ما علّمه التاريخ .

سأل خُبيب فجأة :

وماذا طلبوا من رسول الله ﷺ؟

قال عبد الله:

قالوا إن فيهم إسلامًا ، ورغبوا أن يبعث معهم نفرًا من أصحابه يفقّهونهم في الدين ، ويقرئونهم القرآن .

تغيّر وجه خُبيب ، كأن ريحًا من الغيب مرّت به.

قال عبد الله متفحّصًا:

ما بالك؟ أرى في عينيك شيئًا .

قال خُبيب ، وقد خفّض بصره :

لا شيء... غير أن قلبي لا يطمئن لهم.

قال عبد الله: وبم أجابهم رسول الله؟

قال: أجابهم إلى ما طلبوا ، واختار ستة من أصحابه ، من حفظة القرآن وأعلمهم بشرائع الإسلام .

هنا انتفض خُبيب ، وقال بصوتٍ خافتٍ لكنه مشحون بالأمل:

وكنتَ ترني ، يا عبد الله ، أرفع رأسي ، وأتطاول ، لعلّ رسول الله يراني ، فيجعلني في وفده إلى عضل والقارة .

قال عبد الله مبتسمًا بحزن: «فجعلك منهم؟

أطرق خُبيب رأسه، وقال:

فاتني هذا الشرف... أو لعلّه لم يفتني، بل تأجّل.

قال عبد الله:

ومن هؤلاء الستة؟

قال خُبيب يعدّدهم، وكأنه يتلو أسماء نجوم:

مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق .

توقّف عبد الله وقال:

هؤلاء خمسة... والسادس؟

رفع خُبيب رأسه ، وعيناه تلمعان بدمعة حارّة:

أنا يا عبد الله... ليتني كنت معهم .

ساد صمتٌ ثقيل ، كأن الزمن توقّف ليستمع.

ثم قال عبد الله:

اذهب إلى مرثد بن أبي مرثد، فقد أمره رسول الله عليكم .

لم ينتظر خُبيب تتمة الكلام ؛ انطلق مسرعًا ، يخطو وكأنه يطوي الأرض طيًّا . كان في صدره شوقٌ لا يهدأ ، وفي روحه نداءٌ لا يُكذَّب.

*

وهو يسير، كان حواره الداخلي يعلو على ضجيج الطريق:

يا خُبيب، أإلى تعليم القرآن تذهب ، أم إلى موعدٍ مع الشهادة ؟

بل إلى الاثنين معًا ؛ فربّ حرفٍ يُتلى يكون آخر العهد بالدنيا.

كانت **نسائم الجنة** - كما كان يحسّ - تصافح وجهه ، وريحها يعطّر كل ذرة في جسده . شعر أن الأرض أخفّ ، والسماء أقرب ، وأن قلبه صار مرآة تعكس ما وراء الغيب.

قال في نفسه :

إن لم أُقتل اليوم ، فغدًا... وإن لم يكن في أُحد ، ففي غيرها... المهم أن أصدق ، وأن يصدقني الله.

كان التاريخ يسير معه ، لا خلفه ؛ يسير معه من بدر إلى أُحد ، ومن أُحد إلى ما هو آتٍ. كان يعلم - بعين البصيرة لا بعين الغيب - أن الطريق إلى الله ليس مستقيمًا في أعين الناس ، لكنه مستقيم في ميزان السماء.

وصل إلى مرثد بن أبي مرثد ، وقد سبقته روحه جسده.

قال له مرثد:

مرحبًا بك يا خُبيب ، لقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نمضي .

ابتسم خُبيب ابتسامة من عرف قدره ، وقال :

على بركة الله... فإن كانت دعوة ، فهي دعوة إلى النور، وإن كانت شهادة ، فهي حياة لا موت بعدها.

وهكذا خرج خُبيب ، لا يلتفت خلفه ، ولا يحمل في قلبه إلا يقينًا واحدًا:

أن الأيام دول ، وأن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه ، وإذا ابتلاه قرّبه ، وإذا قرّبه اصطفاه ...وأن الشهادة ، وإن تأخّرت ، لا تخطئ موعدها.

وسيمضي خُبيب... وستكتب له الأيام ما لم يُكتب له في أُحد ، وسيعلّم التاريخ أن بعض الأرواح تُولد للشهادة ، وإن طال الطريق.

على خشبة التنغيم... حين انتصر المصلوب

على مشارف مكة ، حيث يختلط الغبار بتاريخٍ لا ينام ، نُصبت الخشبة في أرض التنغيم ، تلك البقعة التي اختارها بغاة أمّ القرى مسرحًا للانتقام ، ومذبحًا مفتوحًا لمن يقع في أيديهم من أصحاب محمد ﷺ.

هناك، بين السماء التي شهدت الوحي ، والأرض التي عطشت للعدل ، عُلِّق جسدٌ نحيل ، لكن روحه كانت أوسع من مكة ، وأعلى من الخشبة ، وأبقى من السيوف.

ذلك هو **خبيب بن عدي** ...شهيدٌ سبق الموت ، فصار حيًّا في ذاكرة الزمان.

قالوا : نقتله ثأرًا لبدر.

وزعموا: إنما هو دمٌ بدم ، وسيفٌ بسيف .

لكن بدرًا بريئة من دمه ، وخبيب لم تطأ قدمه ساحة ذلك اليوم إلا بالدعاء . لم يقتل أبًا ، ولم يُيَتِّم طفلًا ، ولم يُفجع أمًّا.

فبأي حقٍّ يُصلب ؟ وبأي منطقٍ يُقتل ؟

هكذا تساءل التاريخ ،

وهكذا أجاب الصمت: إنما يُقتل لأنه قال :**ربي الله**.

*

قبل الخشبة ، كان الطريق.

وقبل الدم ، كانت الدعوة.

وقبل النهاية ، كانت الخديعة.

يتذكر خبيب، وهو معلق بين الأرض والسماء ، ذلك اليوم البعيد القريب ، حين كان واحدًا و خمسة من شبّان الأنصار والمهاجرين ، بعثهم رسول الله ﷺ دعاةً لا غزاة ، وكلمةً لا سيفًا.

أمّر عليهم مرثد بن أبي مرثد ، ومضوا نحو أرض عضل والقارة ، يحملون في صدورهم نورًا ، وفي أيديهم آيات.

حتى بلغوا ماءً لهذيل ، يُدعى **ماء الرجيع**.

كان المكان هادئًا ، سكونه مخاتل ، وصمته ماكر.

قال رجل من الهون بن مدركة ، وقد تظاهر بالودّ ، وتقمّص ثوب النصح:

ماذا لو قضينا الليل هنا، ثم تابعنا السير غدًا إلى أرضنا؟

نظر خبيب إلى الماء، ثم إلى السماء ، ثم إلى إخوانه ، وقال بصوتٍ مطمئن:

لا بأس. ولنقضِ الليل في الصلاة والتهجّد.

ضحك الرجل ضحكةً مكسورة ، وقال :

يا ابن عدي ، إنّا لن نعتاد مثل هذا الجهد ، فلنبقه حتى نصل.

ابتسم خبيب ، ابتسامة من عرف الله ، وقال :

جهد؟ المسلم الصادق لا يرى في الصلاة تعبًا ، ولا في القيام نصبًا.

تداخلت الأصوات ، وتراخت العزائم ، وقال الرجل :

لقد وجدنا في رحلتنا هذه ، فلنأخذ نصيبًا من النوم ، فإذا بلغنا أرضنا بالغداة ، فرغنا قومنا لما عندكم من شرائع الإسلام.

ناموا ...ونام معهم الحذر. أما الغدر، فلم ينم.

تظاهر القوم بالنوم ، حتى إذا غلب النعاس أصحاب محمد ﷺ ، انفلت أحدهم كذئبٍ من جحره ، وعدا إلى بني هذيل .فجاءوا ...جاءوا في كامل سلاحهم، كأن الليل أنجبهم دفعة واحدة.

فزعّ المسلمون من نومهم ، فإذا السيوف مشرعة ، والرماح محيطة ، والوجوه لا تعرف عهدًا ولا ذمّة.

فصاح خبيب ، وصوته يشق الظلام :

يا معشر المسلمين، إنه الغدر... إلى سيوفكم!

قال أحد بني هذيل ، وهو يلوّح برمحه :

يا أصحاب محمد، استأسروا، فلا حاجة لنا إلى نفوسكم.

قال مرثد ، والدهشة في صوته :

ويحكم ! فلمَ تحيطون بنا بالسيوف والرماح ؟

نحملكم إلى مكة ، ونصيب بكم شيئًا من قريش.

قال خبيب ، وقد اشتعلت في عينيه نار البصيرة :

تغدرون بنا ؟ وأنتم تعلمون أن قريشًا تقتل من يقع في أسرها من المسلمين !

قالوا:

نأخذ عليهم عهدًا ألا يقتلوا أحدًا منكم ، بل يبادلونكم بأسرى عند صاحبكم.

ضحك خبيب ضحكةً مُرّة ، وقال :

لقد أعدنا كل أسرى قريش إلى مكة ، ولم يبقَ في يثرب إلا من أسلم.

قالوا:

قالوا لنا في مكة غير هذا... قالوا: لن يُقتل منكم أحد.

ومن هؤلاء ؟

أبو سفيان ، وعكرمة بن أبي الحكم ، وصفوان بن أمية ، وحجير بن أبي وهب.

اهتز صوت خبيب ، لا خوفًا، بل يقينًا:

لا والله لا نستأسر أبدًا.

هؤلاء يصرخون في كل مكان أنهم لن يتركوا دماء أهليهم.

أبو سفيان يطلب دم ابنه حنظلة ، وعكرمة يزعم أني قتلت أباه أبا جهل ، وصفوان يقسم ليقتلنّ كل مسلم يقع في يده ، ثأرًا لأبيه وأخيه ، وما قُتلوا إلا في حرب!

قال الهذلي ، وقد ضاق صدره :

لن نسلّمكم حتى نأخذ العهود. استسلموا.

قال خبيب ، كأنما يخاطب الدهر:

والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا.غدرتم في الأول، وستغدرون في الآخر.

وهنا صاح **عاصم بن أبي الأقلح** ، صيحةً دوّت في التاريخ :

يا أصحاب رسول الله ﷺ ، إني أقسمت ألا يمس جسدي مشرك قط ! قاتلوا عن دينكم!

فكانت الدماء ، وكان القتال ، وكان الفداء.

وسقط من سقط ، وأُسر من أُسر ، وكان خبيب في عداد الأسرى... إلى الخشبة.

*

ها هو الآن، مصلوبًا ، والريح تعبث بثوبه ، وأهل مكة يتقاطرون ليروا الثأر المزعوم.

ينظر إليهم، فلا يرى وجوهًا ، بل يرى أقدارًا عمياء.

يطلبون منه أن يجزع، فيبتسم .يطلبون منه أن يسبّ محمدًا ، فيصمت صمت الجبال.

يسألونه:
أتحب أن يكون محمد مكانك ؟

فيقول ، وصوته أصدق من الحياة :

والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي ، ويصاب محمد ﷺ بشوكة.

ثم يطلب أن يصلي.

فيصلي...ركعتين خفيفتين ، ثقيلتين في ميزان الخلود .

ثم يلتفت ، ويقول :

ـلولا أن تظنوا أني أطلت جزعًا من الموت، لزدت.

ويُقتل.

لكنهم لا يعلمون... أنهم ما قتلوه ، بل أطلقوه .وما صلبوه ، بل رفعوه .وما انتصروا، بل خسروا.

بقي خبيب ، وبقيت قصته ، وبقيت الخشبة شاهدًا:

أن الجسد يُهزم ، أما الإيمان... فلا يُصلب.

على خشبة الخلود

نشيد خبيب بين قيود الأرض وفضاء السماء

كان الغروب في مكة ينسدل كسِترٍ أرجوانيٍّ حزين ، والريح تمرّ على خشبة الصلب كأنها تتهجّى أسماء الشهداء واحدًا واحدًا. هناك ، بين خشبٍ يابسٍ وحديدٍ قاسٍ ، كان خبيب بن عدي مصلوبًا ، لا لأن جسده عجز عن الهرب ، بل لأن روحه سبقت إلى حيث لا قيود ولا سلاسل. كان ينتظر... لا موتًا ، بل ولادةً أخرى ، ولادةً لا يحدّها زمن ولا يطويها تاريخ.

شدّ بصره إلى الأفق ، فانبثقت الذكريات كما تنبثق النار من الحجر. قال في سره ، والسرّ عند الصادقين صلاة :

يا رب ، ها أنا ذا ، وحيدًا في جمعٍ يتفرّج ، مصلوبًا على خشبةٍ ظنّوها نهاية ، وما علموا أنها بداية.

عاد به الفكر إلى ذلك اليوم المشؤوم ، يوم أُريقت دماء أربعةٍ من إخوانه ، كأن الأرض ضاقت بهم فاتّسعت السماء. رأى وجوههم ، واحدًا واحدًا ، رأى ابتسامتهم وهم يسقطون ، لا سقوط المنهزم ، بل ارتقاء المؤمن. ثم رأى نفسه ويزيد بن الدثنة ، وقد أُثقلا بالقيود ، سُحبا كما تُسحب الغنائم ، لا لأنهم غنيمة حرب ، بل لأن الحقّ كان أثقل من أن يُترك حرًّا.

*

حُمِل خبيب ويزيد إلى مكة ، والحديد في الأقدام ، والنار في القلوب . كان يزيد أكثر صمتًا ، كأن الكلام انكسر في صدره ، أما خبيب فكان يصغي لصوته الداخلي ، ذاك الذي لا يهدأ إلا بذكر الله. قال ليزيد يومها ، وهما يسيران بين السيوف والنظرات:

يا يزيد ، إن القيد لا يقيد من عرف وجهته، وإن الطريق إلى الله قد يمرّ عبر شوكٍ ودم.

ابتسم يزيد ابتسامة موجوعة ، وقال :

بل يمرّ، يا خبيب، وها نحن نمشيه خطوةً خطوة.

*

اشتُري زيد - أو يزيد كما كان يُدعى - صفوانَ بن أمية ، ليقتله بثأرٍ قديم ، ثأر أخٍ وأبٍ قُتلا يوم بدر. أما خبيب ، فقد اشتراه حجير بن أبي وهب ، رجلٌ يحمل في صدره حقدًا أعمى ، لا يرى من التاريخ إلا دمًا يطالب بدم.

أُدخل خبيب دار حجير ، لا كضيفٍ ولا كأسير حرب ، بل كجريمةٍ مؤجلة. أُلقِي في سجن الدار ، قُيّد بالأغلال ، وأُغلق عليه باب محبسه ، ووُكل أمر حراسته إلى ثلاثةٍ من أشدّ العبيد ، يأتمرون بأمر زوجة حجير ، أم سعد ماوية بنت عمرو.

وهنا تبدأ الحكاية بلسان امرأةٍ لم تكن تعلم أن القدر سيجعلها شاهدةً على قديسٍ في ثوب أسير.

تقول ماوية:

ما رأيت من خبيب بن عدي ، منذ أُلقي به زوجي حجير في سجن دارنا ، ما خوّفني منه أو أزعج قلبي. بل كنت أرى في عينيه سكينةً غريبة ، كأن القيود زينة ، وكأن السجن محراب.

كان حجير قبل سفره إلى الطائف قد أوصاني ، وأوصى عبيده ، فقال لي بصوتٍ لا يعرف التردّد :

لا ترفقي بهؤلاء العبيد إن قصّروا في حراسة سجيننا. لا تنسي ما فعل عياش بن ربيعة ، كيف خدع حرّاسه ، وكسر قيوده ، وفرّ إلى صاحبه في يثرب.

أومأت برأسي، لكن قلبي لم يطمئن. قلت له ، وقد وجدت الجرأة تتسلّل إلى لساني:

لعل هذا الفتى يا حجير ليس هو من قتل أخاك الحارث يوم بدر. لقد سمعته يؤكد لك ذلك.

اشتعل وجهه ، وقال بحدّةٍ تقطر يقينًا زائفًا :

بل هو يكذب ! لقد أخبرني من أصدق أنه هو قاتل أخي ، وشارك في قتل عمي عامر بن أبي وهب . والله لأقتلنه بهما بعد عودتي من الطائف ، وبعد انقضاء الأشهر الحرم.

خرج حجير، وبقي خبيب... وبقي قلقي.

*

كنت أدخل عليه أحيانًا ، أراقبه من خلف الباب ، أو أضع له طعامًا. والله ، ما رأيته يومًا جزِعًا ولا متوسّلًا. كان إذا جنّ الليل ، قام يصلّي ، فأحسب أن الجدران تصغي ، وأن القيود تخفّ ثقلها حياءً من خشوعه.

مرةً سمعته يناجي ربّه ، لا بصوتٍ مرتفع ، بل بنداءٍ داخليٍّ كأن القلب هو من يتكلّم:

اللهم إنهم قد جمعوا عليّ ليقتلوني ، فاحصِهم عددًا ، واقتلهم بددًا ، ولا تُبقِ منهم أحدًا.

فارتعدت. لا خوفًا منه، بل من صدق دعائه.

رأيت العجب في أمره. رأيته يومًا يأكل من عنقود عنبٍ في غير أوانه ، وليس في مكة عنب ! أقسم بالله ، ما كان في بيتنا شيء من ذلك ، ولا أدري من أين جاء. قلت في نفسي : إن هذا الرجل ليس كسائر الرجال.

سألته مرةً ، وقد غلبني الفضول:

يا خبيب، أما تخاف الموت ؟

ابتسم ، وكانت ابتسامته كضوء فجرٍ في ليلٍ طويل ، وقال :

إنما أخاف أن أموت قبل أن ألقى الله راضيًا عني. أما الموت في سبيله ، فذاك عرس الروح.

*

عاد حجير من الطائف ، وعاد معه القرار. أُخرج خبيب من سجنه ، لا إلى حريةٍ مؤجلة ، بل إلى خشبةٍ منصوبة. اجتمع الناس ، كأنهم في سوقٍ أو عيد ، ينظرون إلى رجلٍ ذاهبٍ إلى خلوده.

وفي الطريق ، التفت خبيب إلى من حوله، وقال بهدوء من ودّع الدنيا :

دعوني أصلّي ركعتين.

صلّى ، فأطال ، ثم سلّم. قال بعضهم :لو شاء لأطال خوفًا من الموت .فقال خبيب ، كأنه يقرأ خواطرهم :

لولا أن تظنوا أني أطلت جزعًا من الموت ، لزدت.

*

وعاد بنا الزمن إلى تلك اللحظة ، لحظة الصلب . كان خبيب مصلوبًا ، والدم يسيل ، لكن روحه كانت تحلّق. نظر إلى السماء ، وقال:

اللهم تقبّل مني ، فقد بلّغت.

وتذكّر إخوانه الأربعة ، وتذكّر يزيد ، وتذكّر المدينة ، وتذكّر النبي ﷺ ، فابتسم. لم يكن الألم غائبًا ، لكنه كان مهزومًا أمام اليقين.

*

تختم ماوية حديثها ، وصوتها يرتجف:

والله ، ما شهدت بعده موقفًا أشدّ وقعًا في قلبي. لقد قتلوا جسده ، لكنهم أيقظوا فيّ روحًا لم أعرفها من قبل. عرفت أن الحقّ قد يُصلب ، لكنه لا يموت.

وهكذا مضى خبيب ، من خشبةٍ في مكة ، إلى حياةٍ أبديةٍ في الجنة. بقي جسده ذكرى ، وبقيت قصته مرآةً للتاريخ ، تقول لمن يقرأ:

إن بعض الموت حياة ، وإن بعض القيود أجنحة ، وإن الشهادة ليست نهاية الطريق... بل قمته.

عند التنعيم...

حين انكشفت الجاهلية أمام نور الروح

كنتُ من قريش ، أدين بدينها ، وأدين معها بعاداتٍ توارثناها كما يُتوارث السيف: صقيلًا في الظاهر ، دامِيًا في الجوهر . نشأتُ على شريعتهم ، شريعةٍ لا

تعرف إلا حدَّ السيف ، ولا ترضى في الخصومة إلا بسفك الدم ، فإن أُسِر الأسير قُتِل ، وإن ظُفِر بالعدو قُتِلَ به ، في حربٍ أو غير حرب . وإذا لُفِّق الاتهام كذبًا وعدوانًا ، لم تقبل قريش ديةً ولا ترضى صلحًا ، بل لا يبرد غضبها إلا عند التنعيم ، بضربة عنق أو طعنة رمح ، وكأن الدم هناك أقرب إلى الأرض ، وأسرع إلى إرضاء الآلهة المزعومة.

في أول الأمر ، لم أجد في المصير الذي ينتظر خبيبَ بن عديٍّ بأسًا ولا غرابة . قلت في نفسي : تلك سنة الجاهلية ، وذلك حكمها الذي لا يُردّ. وما خبيب إلا رجل من أعدائنا ، أوقعته الأقدار في أيدينا ، فليلقَ ما لقي غيره . لكنني ، واأسفاه ، لم أكن أعلم أنني على موعد مع زلزلةٍ في الروح ، ومع مراجعةٍ قاسيةٍ لما كنت أحسبه يقينًا لا يتزعزع.

كنتُ أرمقه من وراء باب محبسه ، بابٍ من خشبٍ خشنٍ كقلوب حراسه ، فأراه قائمًا يصلي صلاةً ما عهدناها ، ركوعٌ وسجود ، خشوعٌ وتبتل ، جسدٌ موثوق بالسلاسل ، وروحٌ طليقةٌ تحلّق في فضاءٍ لا تدركه العيون . فإذا انتهى من صلاته رأيته يبكي ، بكاءً هادئًا لا عويل فيه ولا جزع. فغلبني الفضول ، وسألته يومًا:

ما لك تبكي يا خبيب ؟ أحسبتك تخاف القتل ؟

رفع رأسه ، وفي عينيه نورٌ غريب ، لا يشبه نور الشجاعة التي نعرفها ، بل نور السكينة التي لم نألفها ، وقال:

إنما أبكي خوفًا من ألا يغفر لي ربي ما ارتكبتُ من ذنوبٍ قبل أن يشرح صدري للإسلام.

دهشت ، وقلت دون روية :

حسبتك تبكي خوف القتل !

فابتسم ابتسامةً كسرت شيئًا في داخلي ، وقال:

قد كنت لا أخافه قبل إسلامي ، فكيف أخافه بعد أن أسلمت ؟

سكتُّ ، كأن الكلمات صُفِعت في فمي. أيُّ رجلٍ هذا الذي يقف على شفير الموت ، فلا يرى فيه إلا جسرًا ؟ وأيُّ دينٍ هذا الذي ينزع من القلب خوفه الأكبر ؟

قلت ، وأنا أستعيد بعض ما تردده نساؤنا :

أرسل بك صاحبك إلى حتفك.

فالتفت إليّ بعينين حازمتين ، وقال :

لبئس ما تقولين في رسول الله يا بنت عمرو. لقد عاش بين ظهرانيكم خمسين عامًا ، فهل رأيتِ منه قط ما تكرهين ؟

ترددتُ ، ثم قلت بصدقٍ لا مهرب منه :

لا ، والله، لقد عهدته رفيقًا بقومه ، حريصًا على عزهم ومجدهم. ولكنه بعد أن هاجر ، واستمالكم معشر الأوس والخزرج إلى دعوته ، فسد أمر قريش كلها. ما بقي في مكة بيتٌ إلا دخله هذا الدين ، ففرّق بين الفتى وأمه ، والمرأة وأهلها. كانت لي صاحبة في مثل سني ، هاجرت وخلّت أهلها ، وباعتهم بهذا الدين الذي تولعون به أشد الولع.

قال بهدوءٍ يثير الغضب والدهشة معًا :

لو هُديتِ إلى الإسلام يا أم سعد ، لفعلتِ مثلما فعلت صاحبتك.

فقلت بعصبيةٍ تخفي خوفًا:

لا والله ، ما أفعل هذا فأُخزي زوجي وأبي.

لم يعلّق ، لكنه نظر إليّ نظرةً طويلة ، كأنها تقول إن الخزي ليس فيما أظن ، وإن الشرف ليس حيث وضعتْه قريش.

ومضت الأيام ثقيلةً كأنها تسير على جراحنا. كنت أذهب إليه بالطعام ، ولا أجد حرجًا في الدخول عليه في محبسه ، على أعين حراسٍ من عبيد زوجي. كنت أقف أنظر إليه وهو يأكل ، فأراه في احتشامٍ لم نعهده من قومنا : لا يعظم اللقم ، ولا يلتهم الطعام التهامًا ، يبدأ بذكر الله ، وينتهي بما بدأ به. حتى طعامه كان صلاة.

سألني يومًا عن صاحبه زيد بن الدثنة. كنت أعلم أن صفوان بن أمية قد قتله في التنعيم ، بأبيه أمية بن خلف وأخيه علي بن أمية ، لكني أشفقت أن أخبره ، فقلت:

لا يزال في محبسه في دار صفوان.

نظر إليّ نظرة العارف ، وقال

ما أحسب إلا أنك تخفين عني أمرًا يا بنت عمرو.

قلت ، وأنا أراوغ :

وما يدريك أني أخفي عنك شيئًا من أمر صاحبك ؟

قال ، وصوته يشفّ عن يقينٍ لا عن ظن:

رأيته في منامي أمس يرتع في بستانٍ ما رأيت مثله حسنًا ولا طيبَ هواءٍ وثمر. ما أحسب إلا أنه سبقني إلى جنة الرحمن. أصدقيني يا أم سعد ، أقتله صفوان ؟

لم أجد مهربًا من الصدق، فقلت :

نعم ، منذ ثلاثة أيام.

قال بهدوءٍ يهزّ الجبال:

في الشهر الحرام... إنا لله وإنا إليه راجعون.

قلت ، وأنا أراقب ملامحه :

لم أرك تجزع لموت صاحبك.

قال:

وما جزعي ، وقد وجد ما وعده ربنا حقًا ؟ جنةٌ عرضها السماوات والأرض.

سكت لحظة ، ثم سأل :

كيف كان مصرعه ؟

قلت:

أخشى إن أخبرتك أن أزيد من أحزانك ، فإنك عليه لحزين ، رغم تجلدك.

قال:

عهدتُ أخي زيدًا شجاعًا في مواجهة الموت... هكذا كان يوم بدر، وما أحسب إلا أنه كان أشد شجاعة وهو يعاين الموت يوم مصرعه.

قلت ، وكأن المشهد يعود حيًّا أمامي:

صدقتَ واللات يا خبيب. أخرجوه من الحرم ليقتلوه ، والتف الناس حوله شامتين . قدموه إلى سيف نسطاس مولى صفوان بن أمية . وسأله أبو سفيان :

أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدًا عندنا الآن مكانك نضرب عنقه ، وإنك في أهلك ؟

ابتلعت ريقي ، وأكملت:

فقال زيد على الفور:

والله ما أحب أن رسول الله ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه في يثرب ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وإني جالس إلى أهلي.

قلت ، وأنا أستعيد دهشة ذلك اليوم :

قال أبو سفيان ، والسيف مرفوع فوق عنقه:

أسمعتم ما قال هذا الفتى ؟!

وقال رجل من أهل مكة:

لشد ما يحبون صاحبهم ! فقال أبو سفيان: بل والله ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا.

حين انتهيت، رأيت الدموع في عيني خبيب ، لكنها لم تكن دموع حزنٍ ، بل دموع شوق. قال :

الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة مثل زيد.

في تلك اللحظة ، شعرتُ أن الجدران تضيق ، وأن الجاهلية التي تربيتُ عليها تتهاوى في داخلي حجرًا حجرًا. رأيتُ نفسي بين تاريخٍ أثقلته الدماء ، ومستقبلٍ يلوح فيه معنى جديد للحياة والموت ، للشرف والخزي ، للقوة والضعف.

خرجتُ من محبسه ، لكني لم أخرج كما دخلت . خرجتُ وأنا أحمل في صدري سؤالًا مريرًا:

أيُّنا الأسير حقًّا ؟ خبيب الموثوق بالسلاسل ، أم نحن الموثوقون بأغلال الجاهلية ؟

وعند التنعيم ، حيث تسيل الدماء ، بدأتُ أفهم أن بعض الموتى أحياء ، وأن بعض الأحياء موتى... وأن التاريخ ، حين يُروى بصدق ، يفضح القسوة ، وينحاز للروح.

*

واغرورقت عينا خُبيبٍ بالدموع ، لا دموعَ ضعفٍ ولا انكسار، بل دموعُ يقينٍ حين تفيض الروح بما ضاق عنه الجسد. كانت الدموع تتلألأ في محجريه كما يتلألأ الفجر على حدِّ السيف ، لحظةً بين عالمين ، وبرزخًا بين خوف البشر وسكينة المؤمن.

قال بصوتٍ خافتٍ ، لكنه نافذٌ كنصلٍ مسنون:

أشهدتِ مصرعه يا أمَّ سعد ؟

ارتجفت المرأة ، لا من السؤال ، بل من صداه. كأن الكلمات لم تُقَل ، بل قُذفت في صدرها قذفًا. سكتت برهة ، ثم قالت وقد حاولت أن تستجمع شتات قلبها:

أجل.

لم تكن " أجل " كلمة ، بل حجرًا أُلقي في بئرٍ سحيق ، فارتدت أصداؤه حزنًا فوق حزن. رفع خُبيب رأسه ، وحدّق في وجهها ، كأنه لا يراها وحدها ، بل يرى خلفها قريشًا ، وسيوفها ، وأسواقها ، وكبرياءها الأجوف.

فماذا كانت آخر كلماته في الدنيا ؟

تنفّست أم سعد بعمق ، وكأنها تغوص في ذاكرةٍ تحاول أن تفرّ منها ، لكنها تأبى إلا أن تطفو. قالت:

قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ثم أضافت، وقد حاولت أن تُلبس قسوتها ثوب التبرير:

أحسبُه ما قال ذلك إلا ليكبت صفوان وعكرمة وأبا سفيان ، ويعكّر عليهم لحظة الانتقام.

ابتسم خُبيب ابتسامةً خفيفة ، فيها من الشفقة أكثر مما فيها من الاستهزاء . كانت ابتسامة رجلٍ خبر القلوب ، وعرف أن بعض الناس لا يطيقون أن يكون الإيمان صادقًا ، فيردّونه إلى حيلةٍ أو مكر.

أما وجدتِ له رِقّةً في قلبك يا أم سعد ؟

ترددت. تلعثمت الكلمات في فمها كما تتلعثم الحقيقة في صدرٍ يأبى الاعتراف.

الت ، وكأنها تبحث عن مخرجٍ أخلاقي من ضيق الموقف:

استنكرتُ أن يقتلوه في الشهر الحرام.

هنا تغيّر وجه خُبيب. لم يغضب ، لكنه ازداد صلابة ، كجبلٍ تكسّرت عنده الرياح. قال:

ولم تستنكري أن قتلوه في غير قصاص ؟ أهذه شريعة قريش الباغية ؟

سكتت. والصمت في تلك اللحظة كان أبلغ من كل جواب. صمتٌ ثقيل ، كأنه اعترافٌ مبتور. ثم قالت ، محاولةً الاحتماء بالشعر ، كأن الشعر درعٌ يقي من مواجهة النفس:

قلتُ متأسّيةً بشعر دريد بن الصمّة:

وما إنا إلا من غزيّة إن غوت غوينا، وإن ترشد غزيّة نرشد.

هنا ، لم يعد الحوار مجرد تبادل كلمات ، بل صار تصادم رؤيتين للعالم:

رؤية القبيلة ، ورؤية العقيدة ؛ رؤية الدم والنسب ، ورؤية الحق والمعنى.

*

الغوص في عقل خُبيب

في تلك اللحظة ، انسحب خُبيب إلى داخله ، إلى ذلك الركن العميق من النفس حيث لا تصل ضوضاء السيوف ولا صخب الأسواق. تساءل في سره : كيف يُمكن للإنسان أن يرى الحق ثم يعرض عنه ، لا جهلًا ، بل عصبية ؟ كيف يُمكن للقلب أن يستنكر الزمان ولا يستنكر الفعل ؟

كان يرى التاريخ لا كحوادث متناثرة ، بل كخيطٍ واحدٍ ممتد ، تتناوب عليه الأيدي: يدٌ تهدي ، ويدٌ تضل. تذكّر مكة ، وتذكّر دار الندوة ، وتذكّر كيف كانت قريش تُلبس ظلمها ثوب الحكمة ، وبغيها ثوب الشرف. تذكّر أن الدم عندهم أهون من كسر الهيبة ، وأن الإنسان أرخص من فكرةٍ ورثوها عن آبائهم.

قال في نفسه :ما أشبه اليوم بالأمس ، وما أشبه الأمس باليوم. تتغير الوجوه، وتبقى الذهنيات. تتبدل الأسماء ، ويظل الصراع هو الصراع: حقٌّ أعزل ، وباطلٌ متسلح.

*

قال خُبيب ، وقد عاد صوته إلى الساحة :

يا أم سعد ، إن الرجل حين يقول كلمة التوحيد ، لا يقولها نكايةً في أحد ، بل نجاةً لنفسه. هي كلمة تُقال لله، لا للبشر.

خفضت رأسها ، وكأن الكلمات أصابت موضعًا حساسًا في داخلها. قالت:

ولكنكم فرّقتم بيننا ، شققتم صفّنا ، وهدّدتم آلهتنا.

ابتسم مرةً أخرى ، ابتسامةً ممزوجةً بالحزن:

نحن لم نفرّق، بل كشفنا. لم نشق الصف، بل أظهرنا ما كان فيه من تصدّع. أما الآلـهة التي تخاف من كلمة، فكيف تُؤمَن على مصير؟

*

التاريخ يتدخل شاهدًا

في خلفية المشهد، كان التاريخ حاضرًا كقاضٍ صامت. كانت بدر ما تزال قريبة، وكانت مكة تلعق جراحها ، تبحث عن ثأرٍ يداوي كبرياءها المجروح. لم يكن خُبيب فردًا ، بل رمزًا ، ولم يكن قتله انتقامًا ، بل رسالة: أن الحق يُراد له أن يُخنق في مهده.

لكن التاريخ - كما يعلم خُبيب في قرارة نفسه - لا يُكتب بالسيوف وحدها ، بل بالمواقف. وأن كلمة " أشهد " قد تهزم ألف سيف ، إذا خرجت من قلبٍ صادق.

*

في داخل أم سعد ، كانت معركة أخرى تدور. صوتٌ يقول :لقد كان شجاعًا ، ثابتًا ، لم يصرخ ، لم يتوسل .

وصوتٌ آخر يرد :لكنه عدوّ القبيلة ، وعدوّ الآلهة.

كانت تشعر ، لأول مرة ، أن شعر دريد بن الصمّة الذي احتمت به ، ليس حكمة ، بل هروب. أدركت - دون أن تعترف - أن الطاعة العمياء ليست فضيلة ، وأن " غزية " ليست قدرًا مقدسًا ، بل خيارًا يمكن مراجعته.

*

قال خُبيب ، وكأنه يخاطبها ويخاطب الزمن معًا:

سيبقى السؤال يا أم سعد:

من الذي انتصر ؟ من صُلب على الخشبة ، أم من صُلبت إنسانيته وهو يصفّق ؟

لم تُجب. ولم يكن يحتاج إلى جواب.

فالتاريخ ، حين يُكتب بدموع الصادقين ، لا يحتاج إلى توقيع.

وسكتت الأصوات ، وبقي الصدى:

صدى كلمةٍ قيلت في وجه السيف ، وصدى دمعةٍ اغرورقت ،لكنها لم تسقط ...لأنها كانت أثقل من أن تحملها الأرض.

قطفٌ من الجنة... وحوارٌ على حافة الدم

تركته لأحزانه ، وغادرتُ سجنه ، يسربلني الخزي كما تُسربل العتمةُ صدرَ الليل. خزيٌ لما كذبتُ به عليه ، لا لأن الكذب ديدني ، ولكن لأن الصدق كان أثقل من أن أحتمله . فقد ، والله ، وجدتُ في قلبي عنده مصرعَ زيدِ بن الدَّثِنَة رِقّةً لم أعهدها من قبل لأحدٍ من أصحاب محمد ، رِقّةً كأنها خيطٌ من نورٍ انسلّ إلى أعماقي

ففضح ما حاولتُ ستره من قسوةٍ تعوّدتُها ، وخشيتُ أن تدفعني تلك الرقة إلى أن أُجنِّب خبيبًا مصيرًا كمصير صاحبه زيد. فباعدتُ محبسه أيامًا ، وكنتُ إذا مررتُ بقربه سمعتُه يقرأ القرآن ، ويطيل الركوع والسجود، كأنما الأرضُ ضاقت به فاتّسعت له السماء.

*

سألتُها، وقد لاح في صوتي ارتباكٌ لم أفلح في ستره :

أكنتِ تفكّرين في تسريبه من سجنه يا ماوية ؟

قالت ماوية ، وقد أطرقتْ كأنها تنقّب في صدرها عن جوابٍ هارب :

خطر هذا ببالي مرّات ، ولكن العبيد الذين وكّلهم زوجي بحراسته كانوا لا يغفلون عنه ، وكنتُ أخشى إن أنا تمكّنتُ من إطلاق سراحه أن يبطش بي زوجي حُجَير ، وليس لي من يقوم بأمري وأمر ولدي إن طلّقني .

ثم سكتت هنيهة ، كأن الصمتَ صار لغةً أصدق من الكلام ، وقالت:

وكانت حالُ خبيب تدفعني إلى التفكير في هذا الدين ؛ ما اعتنقه أحدٌ إلا واجتهد فيه ، وطرح به الدنيا ، وآثر الآخرة. ثم... ثم حدث ما لم أكن أتوقّع أن يحدث لي.

قلتُ، وأنا أستحثّها كمن يستنطق قدرًا

وما ذاك يا أم سعد؟

تنفّست، فسمعتُ في أنفاسها رجعَ تاريخٍ ثقيل :

عاد زوجي من الطائف ، وأخبرني أنه سيُخرج سجينه إلى التنعيم بعد ثلاثة أيام ليقتله في أبيه وأخيه . وكان خبيب قد طلب مني أن أُخبره بموعد مقتله ، فأنهيتُ إليه ذلك بعد أن انطلق زوجي إلى ندوة مخزوم.

هنا توقّفتْ، وارتعشت نبرتها:

فوجدتُ في يده ما أذهلني.

قلتُ:

ماذا وجدتِ؟

قال لي:

ألكِ في شيءٍ من هذا القطف من العنب يا أم سعد؟

أدهشني ذلك أشدّ الدهشة ، وقلتُ له - هكذا قالت ماوية ، ناقلةً دهشتها بدهشتي:

ما أعجب هذا! قطفٌ من العنب مثل رأس الجمل ! من أين لك بهذا يا ابن عدي ؟ وما أعلم في الأرض في هذه الأيام من عنبٍ يُؤكل ! من جاءك بهذا القطف ؟

قال خبيب ، في سكونٍ كأن الطمأنينة تجسّدت صوتًا:

والله إن صاحبي زيد بن الدثنة ليأكل خيرًا من هذا في الجنة.

قالت ماوية ، وكأنها تُحدّث نفسها قبل أن تُحدّثني:

ما أحسبُ إلا أنه جاءك بهذا القطف بعضُ ملائكة ربك.

قال خبيب ، وقد ابتسم ابتسامةً لا تشبه ابتسامات البشر :

ربي وربكِ يا أم سعد ، يا ماوية. إن كنتِ قد بعتِ آخرتكِ بدنياكِ ، فلا تحرمي ولدك سعدًا من نعمة الإسلام.

قلتُ لها:

فماذا قلتِ له ؟

قالت ، وفي صوتها انكسارُ أمٍّ وارتباكُ امرأة:

قلتُ: الصبيُّ على دين أبيه، لا أملك له شيئًا.

قال:

بل تملكين له الخير إن أردتِ. لكأني - والله - أرى هذه البلدة قد صارت عن قريبٍ كلّها إسلامًا ، ولكن أكثر أهلها اليوم لا يعرفون.

ثم سكتَ لحظة ، كأنما يسمع وقع الغد ، فقلتُ له - قالت ماوية:

يا خبيب، إنهم قاتلوك في الغد.

فلم يرتجف ، ولم يضطرب ، بل تلا بعض آيات ربه بصوتٍ خفيضٍ كنسيم السَّحَر:

»ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا، بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون.«

ثم قال ، وقد شمّ شيئًا لا نشمّه:

ما أطيب ريح الجنة يا أم سعد. وددتُ أن تُرسلي إلى عبدٍ من عبيد زوجك بحديدةٍ أطهّر بها للقتل.

سكتت ماوية، وسكتُّ معها. كان الصمتُ بيننا كثيفًا ، كأنه حائطٌ من أسئلةٍ بلا أجوبة. في تلك اللحظة ، غصتُ في عقلي ، أفتّش عن معنى هذا الثبات الذي لا يلين. كيف لإنسانٍ يعلم أن السيف غدًا أقرب إليه من أنفاسه ، أن يبتسم ، وأن يشمّ ريح الجنة ، وأن يحدّث امرأةً عن مستقبل بلدةٍ لم تُسلم بعد؟

قلتُ في نفسي : أيّ تاريخٍ هذا الذي يُكتب بالدم ، ويُقرأ بالقلوب ؟ أيّ فلسفةٍ تلك التي تجعل الموتَ جسراً لا هاوية ، وتجعل السجنَ محرابًا لا قيدًا ؟ لقد عرفتُ القسوة ، ورضعتُ من ثدي الجاهلية كبرياءها ، لكنني أمام خبيب شعرتُ أنني أصغر من شكي ، وأضعف من يقيني.

التفتُّ إلى ماوية ، فرأيتُ في عينيها صراعَ عالمين : عالمُ الزوج والقبيلة ، وعالمُ الرجل المقيّد الذي تحرّر من الخوف . قلتُ لها :

أترين يا أم سعد كيف يصنع الإيمان بأهله ؟

قالت ، وفي صوتها رجفة اعتراف:

رأيتُ ما لم أره في حياتي كلها. رأيتُ رجلًا سبقنا إلى الموت ، ونحن ما زلنا نتخاصم على الحياة.

*

وهكذا مضى الليل ، يحمل في طيّاته تاريخًا يُعاد رسمه. وغدًا ، حين يُساق خبيب إلى التنعيم ، لن يكون وحده ؛ ستسير معه كلماتُه ، وستسير رِقّته ، وسيبقى قطفُ العنب شاهدًا على أن السماء قد تنفتح في زنزانة ، وأن الجنة قد تُشمّ رائحتها قبل أن تُرى.

أما أنا ، فخرجتُ من تلك الليلة إنسانًا آخر. لم أدخل الإسلام بعد ، لكن شيئًا في داخلي قد انكسر ، وشيئًا آخر قد وُلد. عرفتُ أن التاريخ لا يصنعه السيف وحده ، بل تصنعه القلوب حين تؤمن ، والنفوس حين تختار أن تموت واقفة ، لا أن تعيش منحنية.

على خشبة الفداء... حين يهزم الإيمانُ السيف

تركته، والدموعُ تتساقط من عينيّ كما تتساقط أوراقُ القلب في خريف الخوف، وأرسلتُ إليه مع ولدي سعدٍ موسى يحتدّ بها.

ما إن غاب سعد عن ناظري ، حتى استبدّ بي الرعب ، رعبٌ لا يشبه الخوف ، بل هو انكسارُ الأم حين تسلّم فلذة كبدها إلى المجهول ، وتسلّم معها روحها.

كنتُ واقفةً عند عتبة الدار ، لا أدري أأدعو أم أصرخ ، أأبكي أم أركض خلفه . كانت مكةُ في تلك الساعة صامتةً صمتَ القبور ، لكن في داخلي كانت القيامةُ قد قامت.

سألتُها ، وأنا أرقب ارتجاف صوتها:

ولماذا يا أم سعد ؟

قالت ، وعيناها تسبحان في ماضٍ لا يزال ينزف:

وكيف لا أفزع ، وقد أرسلتُ ولدي وحيدًا إلى عدوّ أبيه ، يحمل في يده موسى ؟ أيُّ عقلٍ هذا الذي يقنع أمًّا أن تفعل ؟ وأيُّ قلبٍ هذا الذي يطاوعها ؟

ثم سكتت لحظة ، كأنها تجمع شتات روحها ، وأكملت:

هرعتُ إلى محبس خبيب ، والقلب يسبقني ، والقدم تتعثّر بخطايا الشك. سمعته يقول لولدي بصوتٍ هادئ ، كأنه يُربّت على الخوف قبل الطفل:

أما خافت أمكِ غدري يا صغيري ، حين بعثتك إليّ بهذه الحديدة ؟ عد إلى أمك ، حتى لا يقتلها الخوف عليك.

ورأيتُ سعدًا يخرج من محبس خبيب، والموسى في يده، وجهه بريءٌ كالصبح، لم تمسسه ظلمةُ الحقد. احتضنته بين ذراعيّ احتضان الغريق للخشبة ، وكنت ألهث كأنني نجوتُ من موتٍ مؤجل.

فلما انتبه خبيب إلى وجودي ، التفت إليّ ، وقال بصوتٍ حافلٍ بالعتاب ، عتاب العارف لا الجارح :

كأنما خفتِ على سعدٍ مني يا أم سعد ؟

حاولتُ الإنكار ، فالإنكار أحيانًا حيلةُ الضعفاء ، وقلت :

لا أكذبك يا خبيب... لقد فزعتُ بعد أن أرسلته إليك بالموسى.

ابتسم ابتسامةً غريبة ، فيها حزنٌ وطمأنينة ، وقال:

قلتِ لنفسك:

يقتل ولدي بالموسى فيكون رجلًا برجب ؟ لا والله يا ماوية ، ما يغدر المسلم أبدًا ، وما كان أحدٌ منا بالذي يفجع أمًّا في وحيدها. إني لأعرف أن حجيرًا قد أزمع على قتلي اليوم ، فما جناية ولدك حتى يُقتل غدرًا؟

كانت كلماته كالمطر، تغسل خوفي ، وتعرّي جهلي ، وتكشف لي صورةً أخرى للرجولة ، رجولة لا تُقاس بالقوة، بل بالأمانة.

قلتُ ، وقد انفتح في داخلي بابُ التمرد:

يا خبيب، لقد غاب حراسك ، فانتظر حتى آتيك بما أكسر به قيودك ، وأسرّبك من ظهر البيت.

لكنه نظر إليّ نظرةً من يعرف أن لكل أجلٍ كتابًا ، ولم يجب.ولم يمهلني القدر ؛ فقد كان زوجي حجير وعبيده أسرعَ مني. أخرجوه في قيوده إلى التنعيم ، والسلاسل تئنّ ، لا من ثقل الحديد ، بل من ثقل الظلم.

لم يبقَ في مكة رجلٌ ولا امرأة إلا خرجوا ليشهدوا مصرع خبيب . كأن المدينة كلها اتفقت على موعدٍ مع الدم . نصبوا له خشبة ، خشبةً لم تكن خشبًا ، بل منصةً لاختبار الضمائر.

طلب خبيب أن يصلي ركعتين قبل أن يقتلوه ، ركعتين يودّع بهما الدنيا ،

يرتّب بهما لقاءه مع السماء.

رفضوا طلبه أول الأمر ، فالقسوة إذا استبدّت أغلقت أبواب الرحمة.

لكن أبا سفيان ، وقد مرّت في ذاكرته صورةُ ابنه حنظلة ، الذي دفنه خبيب بعد أن مات متأثرًا بجراحه وهو في طريقه من بدر إلى يثرب ، صاح في الناس :

ويحكم ! ماذا يملك رجلٌ بلا سلاح ، وأنتم حوله بسيوفكم ؟ دعوه يصلي ، ثم اقتلوه بعدها.

سألتهـا ، وقد شدّني الموقف بين الرحمة والانتقام:

ومن قتله يا أم سعد؟

تنهدت ماوية ، وقالت:

حين رفعوه على الخشبة ، وقيدوه إليها ، رفع بصره إلى السماء ، كأنه يرى ما لا نرى ، وصاح :

اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلغه ما يصنع بنا .

صاح أبو سفيان مرةً أخرى ، وصوته هذه المرة يرتجف:

يا قوم، والله ما تفعلون شيئًا بقتل هذا الرجل. اذكروا ما فعل محمدٌ بأسرانا في بدر، أكرمهم وأحسن إليهم ، وأعادهم إلينا بالفداء. أشهدكم أنني أعطي حجيرًا ما شاء من مالٍ في خبيب بن عدي.

لكن زوجي حجير ، وقد أعمته نار الثأر، صاح غاضبًا:

تمنعني ثأري يا أبا سفيان؟ والله ما أقبل في ثأر أبي وأخي ملءَ الأرض ذهبًا!

رفع حربته ، والشرر يتطاير من عينيه ، وحين همّ بأن يقذف بها خبيب ، صاح الشهيد ، وعينه معلّقة بالسماء:

اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا.

صرخ أبو سفيان في رعب:

ويحكم! اضجعوا لجنودكم ! نزلت عليكم دعوة خبيب !

لكن حجيرًا لم يحفل ، كأن الدعاء لا يعني من باع قلبه للحقد . طعن الشهيد بحربته ، مرةً بعد مرة ، وكلما دفعها إلى صدره استردّها ، ودفعها من جديد ، حتى خمد الجسد، وبقي الاسم.

قالت ماوية بصوتٍ متهدّج:

أحسبُ، يا أبنائي ، أنني هُديتُ إلى الإسلام في تلك اللحظات ، لحظاتٍ لم يمرّ عليّ أشدّ منها. رأيتُ رجلًا يُقتل ، لكن روحه كانت أعلى من خشبته ، ورأيتُ قتلةً أحياءً ، لكنهم كانوا موتى.

في اليوم التالي ، غافلتُ زوجي حجيرًا ، وهاجرتُ مع ولدي سعدٍ إلى يثرب. هناك ، أعلنتُ إسلامي ، وذكرتُ لرسول الله ﷺ ما حدث لخبيب ، ولصاحبه زيد بن الدثنة.

سألتها:

وماذا فعل المشركون بجثمان خبيب بن عدي، شهيد غدر بني الهون بن مدركة؟

قالت، وفي صوتها مرارةُ التاريخ:

تركوه على الخشبة ، كما فعلوا بجثمان صاحبه زيد بن الدثنة ، حتى أرسل رسول الله ﷺ ثلةً من المسلمين فدفنوهما.

ثم سألتها ، وقد شدّني خيطٌ خفيّ بين الماضي والحاضر:

أو تعرفين أين دفنوهما يا أم سعد؟

ابتسمت ابتسامةً خفيفة ، وقالت:

كنتُ فيمن خرجن مع الجيش يوم فتح مكة ، فلما بلغنا " سَرِف "، قال رجلٌ ممن اشترك في دفنهما لرسول الله ﷺ:

هذا يا رسول الله قبر الشهيدين... خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة .

وسكتت.

وسكتَ المكان.

وبقيت الخشبة في الذاكرة ، لا كأداة قتل ، بل كمنبرٍ للخلود ، وبقي خبيب ، لا جسدًا مزقته الحراب ، بل معنىً انتصر على السيف ، ودليلًا على أن التاريخ لا يكتبه الأقوى ، بل الأصدق.

و كأن الغدر ليس له وطن و لا صاحب .